٣٢٥ – خطبة الإمام

وقد أغار سفيان بن عوف الغامدى على الأنبار

ووجه معاوية سُفْيان بن عَوْف الغـامدى فى جيش ، فأغاروا على الأنبار[١] وقتلوا عامل علىّ عليها وهو حَسَّان بن حسان البكرى ، واحتملوا ما كان فى الأنبار من الأموال وأموال أهلها ، وانتهى الخبر إلى علىّ فخرج مُغْضَبا حتى أتى النخيلة ، واتبعه الناس فرقِىَ رَبَاوة[٢] من الأرض ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى عَلى نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد : فإن الجِهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصَّةِ أوليائه ، وهو لِبَاسُ التقوى ، وَدِرْع الله الحصينة ، وجُنَّته[٣] الوَثيقة ، فمن تركه رغبةً عنه ، ألبسه الله ثوبَ الذل ، وشمِله البلاء ، ودُيِّثَ[٤] بالصَّغَار وَالْقَمَاءَةِ[٥] ، وَضُرِبَ على قلبه بالإسهاب[٦] ، وأُديلَ[٧] الحقُّ منه بتضييع الجهاد ، وسِيمَ الخَسْفَ[٨] ، وَمُنِـعَ النِّصْفَ[٩] ، ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاءِ القوم ليلاً ونهارًا ، وسرًّا وإعلانا ، وقلت لـكم اغزوهم من قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزِىَ قوم قَطُّ فى عُقْرِ[١٠] دارهم إلا ذَلُّوا ، فتخاذلتم

---

(١) بلد على الفرات . (٢) الربوة والرباوة مثلثتين : ما ارتفع من الأرض . (٣) وقايته .
(٤) ذلل ، وأصله من داث الشيء من باب باع : لان وسهل ومنه الديوث ، وهو الرجل الذى لا غيرة له على أهله ، والصغار : الذل . (٥) قمأ : كجمع وكرم ، قماءة : ذل وصغر . (٦) هكذا فى رواية ابن أبى الحديد ، من أسهب بالضم : أى ذهب عقله ، وفى نهج البلاغة : (طبع الشام) بالأسداد . (٧) من أداله الله من عدوه : أى نصره عليه ، والباء فى قوله « بتضييع الجهاد » للسببية . (٨) أى أولى الذل والضيم ، وفى رواية المبرد « وسيمى الخسف » بالإضافة ، والسيمى : العلامة . قال المبرد : هكذا حدثونا وأظنه سيم الخسف ، من قول الله عز وجل « يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » (٩) النصف بالكسر ويثلث ، والنصف والنصفة محركين الإنصاف . (١٠) وسطها وأصلها .

وتوا كلتم وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظِهْرِيًّا ، حتى شنت[١] عليكم الغارات ، وَمُلِكَتْ عليكم الأوطانُ ، هذا أخو غامدٍ[٢] قد وردت خيلُهُ الأنبار ، وقتل حسان ابن حسان البكرى ، ورجالاً منهم كثيرًا ونساء ، وأزال خيلكم عن مَسَالِحِهَا[٣] .

والذى نفسى بيده ، لقد بلغنى أنه كَانَ يُدْخَل على المرأة المسلمة ، والأخرى المُعَاهَدَة[٤] ، فَيُنْتَزَعُ حِجْلها[٥] وقُلْبها[٦] ، وقلائدها ورُعُثها[٧] ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع[٨] والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين[٩]، مانال رجلا منهم كَلْمٌ[١٠]، ولا أُريق لهم دم ؛ فلو أن امرأ مسلماً مات من دون هذا أسفاً ، ما كَان عندى فيه ملوماً ، بل كَان به عندى جديراً .

يا عَجَبًا كلَّ العَجَب ! عجبٌ يُميت القلب ، وَيَشْغَل الفهم ، ويُكْثِر الأحزان ! من تَضَافُرِ[١١] هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم ، حتى أصبحتم غَرَضًا[١٢] تُرْمَوْن ولا تَرْمُون ، وَيُغَارُ عليكم ولا تُغِيرُون ، وَيُعْصَى الله عزَّ وجلَّ فيكم وتَرضَوْن، إذا قلت لكم اغزوهم فى الشتاء ، قلتم هذا أوان قُرٍّ[١٣] وَصِرّ ، وإن قلت لكم اغزوهم

---

(١) شن الغارة عليهم : صبها من كل وجه ، من شن الماء على رأسه إذا صبه .

(٢) يريد سفيان بن عوف الغامدى قائد الحملة على الأنبار . (٣) جمع مسلحة بالفتح : وهى الثغر .

(٤) المعاهدة : ذات العهد ، وهى الذمية . (٥) الحجل بالكسر والفتح : الخلخال ؛ وسمى القيد حجلا لأنه يكون مكان الخلخال . (٦) القلب : سوار المرأة . (٧) الرعثة بالفتح : القرط ، والجمع رعاث بالكسر ، وجمع الجمع رعث بضمتين . (٨) قول : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٩) أى تامين ، وفى رواية المبرد : « موفورين » أى لم ينل أحدا منهم بأن يرزأ فى بدن ولا مال .

(١٠) جرح . (١١) تعاون وتناصر . (١٢) وفى رواية نهج البلاغة : « فقبحا لكم وترحا حين صرتم غرضا يرمى » وزادت رواية الجاحظ بعد ذلك : « وفيئا ينهب » والترح : محركة الهم ، والغرض : الهدف . (١٣) القر مثلثة القاف : البرد ، والصر : شدة البرد . وفى النهج : « وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء ، قلتم هذه صبارة القر ، أمهلنا : ينسلخ عنا البرد » وصبارة الشتاء بتشديد الراء : شدة برده .

فى الصيف ، قلتم هذه حَمَارَّةُ[1] الْقَيْظ ، أَنْظِرْنا[2] يَنْصَرِم الحر عنا، فإذا كُنْتم من الحرّ والبرد تفرّون ، فأنتم والله من السيف أَفَرّ ! يا أَشْبَاه الرِّجال و لا رجال ، وَيَا طَغَام[3] الأحلام ! وَيَا عقول رَبَّات الحِجَال[4] ، لَوَدِدْتُ أنى لم أركم ولم أعرفكم ، مَعْرِفَةٌ والله جرّت ندماً ، وأعقبت سَدَمًا[5] ! قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبى قَيْحاً[6] ، وشحنتم صدرى غَيْظًا ، وَجَرَّعْتُمُونى نُغَب التَّهْمَامِ أنفاساً[7] ، وأفسدتم علىّ رأيى بالعصيان والخِذْلاَن ، حتى لقد قالت قريش : إن ابن أبى طالب رجل شجاع ، ولكن لا رَأْى له فى الحرب ! لله دَرُّهم[8] ! ومن ذا يكون أعلم بها منى ، أو أشدّ لها مِرَاساً ؟ فو الله لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نَيَّفْتُ[9] اليوم على الستين ، ولكن لا رَأْى لمن لا يُطاع (يقولها ثلاثاً) .

فقام إليه رجل ومعه أخوه[10] فقال :

« يا أمير المؤمنين أنا وأخى هذا ، كما قال الله تعالى : (رَبِّ إِنِّى لاَ أَمْلِكُ إلاّ نَفْسِى

---

(١) شدة الحر . (٢) أى أمهلنا حتى ينسلخ الحر ، وفى رواية النهج « أمهلنا يسبخ عنا الحر » بتشديد الباء المفتوحة : أى يخف ويسكن ، وكل من خفف عنه شىء فقد سبخ عنه ، ومنه قولهم : اللهم سبخ عنى الحمى : أى خففها . (٣) أوغاد الناس ومن لا عقل له ولا معرفة عنده . والأحلام العقول : جمع حلم بالكسر ، ويجمع أيضا على حلوم ، وفى رواية النهج : « حلوم الأطفال » .
(٤) الحجال : جمع حجلة بالتحريك ، وهى القبة ، وموضع يزين بالستور والثياب للعروس — كناية عن النساء . (٥) السدم : الهم ، أو مع ندم ، أو غيظ مع حزن . (٦) القيح : مايكون فى القرحة من صديدها ، وشحنتم : ملأتم ، وفى رواية الكامل : « ولقد ملأتم جوفى غيظا » .
(٧) النغب : جمع نغبة بالفتح والضم ، وهى الجرعة ، والتهمام : الهم ، وأنفاسا أى جرعة بعد جرعة ، يقال : اكرع فى الإناء نفسين أو ثلاثة . (٨) لله دره : أى عمله ، والدر أيضا : اللبن ، أى لله الثدى الذى رضعه ، وهوتعجب أريد به التهكم، وفى رواية النهج : « لله أبوهم » ! (٩) نيفت : زدت ورواية النهج : « وهاأنذا قد ذرفت على الستين » أى زدت أيضا . (١٠) الرجل وأخوه : يعرفان بابنى عفيف من الأنصار .